

الزوايا القرآنية المنحرفة

أ. بن جدو بن داود (*)

من مجد القلم وعمل على إشاعة الكتابة ومحو الأمية بين أتباعه بكل سبل⁽¹⁾.

ويقول كذلك: "فلم تعرف البشرية دينا مثل الإسلام عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها دعوة إليه وترغيبا فيه وتعظيما لقدره وتنويعا بأهله وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه وبيانا لآدابه وتوضيحا لآثاره وترهيبا من القعود عنه أو الإزورار عن أصحابه أو المخالفة لهديه أو الازدراء بأهله. ومن درس الأديان السابقة على الإسلام أو قرأ كتبها المقدسة ازداد إيمانا بعظمة الإسلام في هذا الطلب.

إنك تقرّ الأسفار المقدسة في العهد القديم أو الجديد فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات: العقل أو الفكر أو النظر أو البرهان أو العلم أو الحكمة... الخ، فإذا قرأت القرآن وجدت فيه كلمة علم نكرة

يش فني أن أساهم بهذا البحث المتواضع في فعاليات

الملتقى الأول لجائزة الجزائر في حفظ القرآن وإحياء التراث الإسلامي. خاصة وقد برمج معه ملتقى علمي حول مدرسة الإقراء في الجزائر أملي أن يعود هذا الملتقى بالخير العميم على كافة أبناء الجزائر، مع الشكر لكل القائمين على تحضيره وفقهم الله وبارك في جهودهم الطيبة...

الكتاب الخيمة أو الزاوية المنحرفة عبر التاريخ

إن المتتبع لتاريخ التعليم عند المسلمين يجد أن بيت الرسول ﷺ أول مدرسة ثم دار الأرقم بن أبي الأرقم.

يقول الدكتور القرضاوي: "الرائع هنا أن هذا النبي الأمي في هذه الأمة الأمية كان أول

(*) مفتش التعليم القرآني، مديرية الشؤون الدينية والأوقاف بالجلفة.

أو معرفة ذكرت 80 مرة أما مشتقاتها (يعلم، يعلمون، العلماء) فقد ذكرت مئات ومئات المرات" (2).

وبعد دار الأرقم جاءت فكرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يجمع أبناء المسلمين على معلم واحد وأمر عامر بن عبد الله الخزاعي أن يعلم الأطفال ويكتب لهم على الألواح أو يلقنهم وجعل له أجرا من بيت مال المسلمين هذا بالنسبة لأطفال المدن والأمصار أما الفاتحون الأوائل فجعلوا الكتاب خيمة متحركة من خيام المعسكر تنتقل مع جنود الفاتحين ونلاحظ هنا قضيتين مهمتين جدا.

أولها: أن جيوش الفاتحين كان معهم معلم القرآن الكريم لتعليم أبنائهم.

ثانيا: أن الكتاب الخيمة المتحركة وجد منذ الفتح الإسلامي الأول وهذا يؤكد مرجعية هذا النوع من التعليم ويؤصل لمدرسة الإقراء ويجعل لهذا البحث روافد من تاريخ التربية والتعليم عند المسلمين وإن كانت المصادر التي تتحدث عن الكتاب الخيمة أو

الزاوية المتحركة - كما فضلت تسميتها - قليلة فهناك إشارة متوفرة في المراجع التي بين يدي لكنني لم أجد فصلا أو بحثا منفردا أو عنوانا فرعيا خاصا، كل ما هنالك ذكر الخيمة الكتاب في درج الكلام.

يقول إبراهيم التوزري : "إن الكتاب كان يصاحب الفاتحين في حلهم وترحالهم إذ أن الكثير منهم كانوا يستصحبون نساءهم وأبنائهم في تنقلاتهم فكان الكتاب خيمة من خيام المعسكر" (3).

الكتاتيب في الجزائر

الكتاتيب رمز ذاتنا وعنوان كياننا وأسلوب منهج تعليمنا القديم وهي أبسط مدارس عرفها التاريخ.

يقول المستشرق ديس في دائرة المعارف الإسلامية : "ويظهر أنه قد وجدت منذ فجر الإسلام، أمكنة كانوا يجتمعون فيها لاستظهار القرآن وتدارسه ولاشك، فإن هذه المواضع كانت كالمدارس الأولية يعلمون فيها مبادئ القرآن وأصول الكتابة العربية كما يحدثون

الواحد، ويذكر أن عبد الله ابن أم مكتوم كان يسكن دار القراء بالمدينة"⁽⁴⁾.

بما ابتدأنا ومنها انطلقنا نصدع بأول حروف الهجاء لنضع أولى لبنات التدشين في جدار الثقافة الإنسانية وأضأنا أول مصباح أنار دروب العالم في لياليه الخالكة في تلك العصور وبعدها.

أو لم تكن مدينة بجاية الناصرية شمعة أنارت دروب الإنسانية حيناً من الدهر وهي "بوجي Bougie" كما سماها الغربيون وقال فيها الشاعر :

دع العراق وبغداد وشامهما

فالناصرية ما مثلها بلد

وكانت الأندلس جسر الحضارة وقد أشاد بهذا الفضل المنصفون من أبناء الأمم الأخرى وقد كتبت الباحثة الألمانية (زيغريد هونكه) كتاباً سمته "شمس العرب تشرق على الغرب"، وحبذا لو سمته "شمس الإسلام"، وغيرها كثيرون ممن كتبوا عن عظمة هذا الدين وقوة دعوته للعلم والتعليم وقد كتب أحد الغربيين يقول في ما معناه : "لقد كان التلاميذ والتلميذات يذهبون إلى المدارس وأماكن

التعليم في حين أن أشرف أوروبا ورجال دينها لا يقدرّون على كتابة أسمائهم.

كما أشاد بالعلم والتعليم عند المسلمين جون جاك روسو، غوستوف لبون وفولتير.

هذه الكتابات وهذه الخيم المتنقلة التي هي عبارة عن كتاب أو زاوية تحمل ألواح التلاميذ ووسائل تعليمهم كانت ترافق القوافل السيارة وجيوش الفاتحين، وهي أهم معالم مقومات الأمة بما حافظت على ذاتها وتصدت إلى أعدائها وصانت هويتها من المسخ وعلى وجودها من الذوبان وعلى كيانها من التلاشي وبقيت متماسكة تماسكاً ميزها عن غيرها وأمدّها بعوامل القوة وأسباب البقاء وحماها من الاندثار. فهذا الكتاب الخيمة على بساطتها وفقرها وهو فقر جميل لأنه فقر ونقص في الأموال والثمرات ولكنه غنى في الأرواح وتشبع بالرضا والرضوان فكل منتسب إليها راض بالقليل وبساطة الحياة وربما شغف العيش ولكنه حريص كل الحرص على حفظ آيات التريل والفوز برضى الجليل.

فهذه الكتابات على بدائية تعليمها وتقليدية وسائلها زودت بالعلم وأشيعت من جوع ثقافي فرضه الأعداء على هذه الأمة فتلك الألواح البسيطة المكتوب عليها حروف الهجاء وقصار السور وآيات التزجيل استطاعت مع مر الزمن أن تروي الأرواح العطشى للمعرفة وخرجت أجيالا تخلصت من قبضة الأمية والجهل يقول أحمد توفيق المدني : "كان التعليم العربي الحر في الجزائر يشمل قديما ثلاث مراتب أولى : ويعطى في الكتابات ويقبل الناس عليه إقبالا شديدا فلا تجد حارة من حارات المدن والقرى أو مضرب من مضارب الخيام أو دشرة إلا وبها الكتاب والطالب، وكان التعليم بها بسيطا يمثل القراءة والكتابة والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبفضل تلك الكتابات البسيطة كانت الأمية قليلة الانتشار في القطر الجزائري" (5).

أما انعدام الأمية في القطر الجزائري قبل دخول الاستعمار فهناك العديد من الكتاب من أكد هذا غريون وجزائريون ويقال إن نسبة الأمية في وسط الشعب الجزائري يوم

دخول الاستعمار إلى بلادنا سنة 1830 كانت تقدر بـ5% أي أن هناك 95% من الشعب الجزائري يعرف الكتابة والقراءة، وهذه الحقائق التاريخية موجودة في كل الكتب التي تتكلم عن التعليم في الجزائر، أذكر منها عنوانين الدكتور رابح تركي في كتابه "التعليم القومي والشخصية الوطنية"، والأستاذ مصطفى الأشرف في كتابه الجزائر أمة ووطن، ومن يريد التوسع فعليه بموسوعة تاريخ الجزائر الثقافي.

بل إن بعض خريجي هذه الخيم المتنقلة وهذه الكتابات القارة أو المتحركة المعزولة في الصحراء والمهجورة في الفياقي والبوادي أمدتنا بإطارات ورجال ثقافة بعضهم الآن أئمة ومفتشون ورجال فتوى.

المعلم: كان المعلم ولا يزال قطب الرحي في المنظومة التعليمية فهو الأب الروحي للتلاميذ والمرشد والمربي ورجل العلم الذي تشد إليه الأبصار وتشرئب له الأعناق وتصغي إليه الأسماع، والمعلم عند البدو الرحل بل وعند عموم الشعب الجزائري

أرفع مترلة فهو يكاد يكون كامل الأوصاف فهما وعلماء ودراية فهو الطبيب والراقي الذي يعالج الداء ويذهب البلاء، بل وقد يؤتمن على الأسرار والودائع ويسأل عن تفسير الأحلام ويستشار في تسمية المولود الجديد، وأحياناً يقترب من درجة الأولياء والصالحين، فهو الرجل المفضل المطاع ومحل احترام والتقدير من طرف الجميع ويستشار ويعمل برأيه يستفتى ويفتي، وهو المرجع في كل الملمات والمنازعات، وهو المستشار الديني والاجتماعي يحل المشكلات ويصلح الخصومات ويعقد قران الزواج، وهو أحد الوجهاء والمبجلين يتصدر المجلس في الجلوس ويدعى في ولائم الأفراح والمناسبات، كما يدعى كذلك في المآتم والمناسبات الأليمة، وهو يلازم القبيلة أو القافلة الراحلة في حلها وترحالها في صيفها وشتائها، وهو إمام الصلوات الخمس والتراويح في أيام رمضان، ومعلم الصبيان والفقهاء والقاضي وأحد أصحاب الرأي بعد رئيس التزلة أو الفرقة أو القبيلة،

ولا يشترط في المعلم أن يكون أحد أقارب القبيلة أو تربطهم بهم صلة الدم ووشائج القرية بل قد يكون أجنبياً عنهم بعيداً عنهم لا نسب بينهم وبينه، لكنه يحظى باحترام كبير وتفضيل وطاعة تامة ولا أحد يتجرأ ويقول له إنك غريب أو أجنبي، بل الكل يناديه (سيدي) أو (أنعمسيدي) وهذه الكلمة تركيب مزجي بين كلمة "أنعم" و "سيدي" وهي مسموعة في منطقة الجلفة وغيرها من بعض المناطق.

أما مسكن الطالب أو المعلم فله خيمة خاصة به هو وأولاده وزوجته تعرف في المنطقة (بعشة) الطالب، ووسائل النقل توفرها له القبيلة أو الفرقة أو التزلة التي يعلم عندها وهي بعير أو بعيران يحملون له أمتعته.

ما يشترط في المعلم

أما ما يشترط في معلم القرآن وهو معروف بكلمة الطالب أكثر من كلمة معلم، فالطالب الذي تستقدمه التزلة يشترط فيه حفظ القرآن والفقه والانسجام مع الجماعة الذين يعملون عنده والأخلاق الفاضلة كالوقار، ويفضل أن يكون

متزوجا بل هو عند بعضهم شرط أساسي
ضمانا للغة والشعور بالمسؤولية نحو
الأولاد الذين يعلمهم.

لباسه

أما لباسه المعروف والمشهور فهو البرنوس إما
أبيض أو رمادي "أشعل" كما يقال أو جلابة
هي الأخرى تكون رمادية أو يضاء وسروالا
واسعا فضفاضا "سروال عربي" ولا يقبل المعلم
حاسر الرأس بلا عمامة، فالعمامة شرط صحة
ووجوب معا، فلا يقبل المعلم بلون عمامة بل
يعتبر عيبا ويفضل في العمامة أن تكون يضاء
على الأشهر وطويلة ضافية تغطي العنق، وفي
الغالب تكون هيئة المعلم مميزة مما يعطيه هيئة
في نفوس التلاميذ وعند الجماعة وهو يسعى أن
يتره نفسه عن مجالس اللغط وأماكن اللهو.

أجرته

أما أجره المعلم فتتكفل بها الجماعة التي
يعمل عندها ويقدمها له سيد القوم أو
كبير الجماعة بعد اتفاق قد تم بينهما قبل
استقدامه، وتكون هذه الأجرة إما مشاهرة أي
كل شهر أو مقاطعة كما يسمونها، وهي أن
يتفقوا معه على مقدار معين من مال أو أنعام

أو حبوب (قمح أو شعير)، وقد تعطى للمعلم
هبات أخرى ومساعدات من باب التفضل
عليه والتقدير له، وهذه المساعدات تكون في
المناسبات الدينية كأن تجمع له أموال في نهاية
شهر رمضان أو يوم عيد الأضحى أو يوم
جني الحصول (كحصاد القمح والشعير). أما
عندما يختم أحد التلاميذ القرآن كله أو بعض
أجزائه فإن المعلم يكرم كذلك.

وقد روى لي أحد معلمي القرآن كبار
السن من مدينة الإدريسية أن ولي تلميذ
قدم بقرة من أحسن الأبقار في قطيعه
مكافأة للمعلم عندما حفظ الطفل البقرة
فقال الأب: "إن سورة البقرة تكافئها".

إذن الكتاب الخيمة أو الزاوية المتحركة
حقيقة اجتماعية واقعة لها أمثلة كثيرة في
تاريخ الجزائر، وسأركز في بحثي هذا على
نموذجين أو ثلاثة نماذج لهذا النوع من
الخيمة الكتاب أو الزوايا المتحركة، وأخذ
ولاية الجلفة كعينة لوجود هذا النوع، ومن
الولاية أخذ ثلاث دوائر إدارية دائرة مسعد
وتقع جنوب الولاية، ودائرة الإدريسية وتقع
غرب الولاية، ودائرة البيرين وتقع شمال

الولاية وفي هذه الدائرة الأخيرة المعلم الذي درس في الزواية المتنقلة لا يزال حيا يرزق وهو إمام بدائرة وسارة.

كان هؤلاء المواطنون البدو الرحل يتنقلون من مكان إلى مكان بحثا عن مواطن الرعي والكلأ لأنعامهم التي هي مصدر رزقهم والأنعام في الغالب هي الغنم والماعز والإبل وحصان أو اثنين وبعض الحمير.

التلاميذ التلاميذ هم المحور الأساسي في عمل المعلم، وهم في الغالب أبناء التزلة، وقد يوجد بينهم تلاميذ أجاناب جاءوا لتعلم القرآن ويكون عددهم غير محدد، لكنه ليس كثيرا فلا يزيد على 20 تلميذا، ولا يقل على 07، وهذا العدد يزيد وينقص حسب الظروف. أما أعمار التلاميذ فليست محددة، وإن كان يفضل أن تكون أعمارهم كبيرة نسبيا من 08 سنوات فما فوق، خاصة إذا كانوا من غير أبناء القبيلة ربما مراعاة لنضجهم، وحرصا على فائدتهم وقدرتهم على التنقل وظروف الترحال الصعبة وتسهيلا لعمل

المعلم، وقد يستفاد من بعض خدماتهم كرعي المواشي وجلب الماء والخطب، وقد روى لي بعض المعلمين المسنين ممن تعلم بهذه الطريقة وعاش التجربة أنه كان يكتب لوحه ويأخذه معه أثناء رعيه للغنم أو الإبل وعندما يعود في المساء يستظهر ما حفظه عن المعلم.

أما وقت كتابة الألواح فهو غير محدد فيكون تارة بعد صلاة الفجر على ضوء القناديل أو الشموع أو نار الخطب، أو ضحى. وإماليا ماين صلاقي المغرب والعشاء.

ونشير هنا أن التعليم مرتبط بالتربية الأخلاقية والروحية فالتلاميذ يصلون جماعيا مع المعلم وشيوخ التزلة ويطالب التلميذ بالحياء والطاعة والأدب وحسن الاستجابة، ويتعرض للعقاب إذا تلفظ بكلمة فيها سوء أدب، وقد يقوم أحد التلاميذ بتأدية صلاة التراويح في شهر رمضان امتحانا له على حذقه للحفظ وتدريبه له على الإمامة وتحفيزا له أمام أقرانه حتى يتنافس التلاميذ في الحفظ.

ونادرا ما توجد وسائل الترفيه واللهو عند التلاميذ، وإن وجدت بعض وسائل الترويح عن النفس فهي لا تعدو أن تكون مدائح دينية أو قصائد يؤديها أحد أفراد القبيلة وتعرف بالذكر وهي ذات صبغة دينية صرفة، وقد يأتي ضيف للقبيلة ويكون معروفا بالإنشاد والمدح والتقصيد، فيطلب منه أن ينشد للحاضرين، وهذا الإنشاد يكون في مناسبة فرح أو قرح وفي مناسبة الوفاة غالبا ما تكون قصيدة البردة.

أما القراءة الجماعية والحزب اليومي فهو مفروض يوميا، حيث يقرأ التلاميذ القرآن جماعة وهو ما يعرف بالترتيل، ويمنع على التلاميذ منعا باتا استعمال المصحف في القراءة أو في الكتابة أو في الحفظ أو في التكرار، وإن وجد مصحف فهو نسخة عند المعلم، والمعلم هو الوحيد الذي له حق استعمال المصحف.

لباس التلاميذ : أما لباس التلاميذ فهو من واقع الحال جلابة وعمامة بيضاء تغطي الرأس وإن كانت تظهر عليهم مظاهر

الحاجة والفقر. أما البنت فلا حظ لها في التعليم إلا القليلات جدا من المخطوطات وهذه البنت إما بنت كبير الجماعة أو بنت المعلم، أو لها من يساعدها على التعلم في البيت كالأب أو الأخ، أما بعض النساء الفقيهات فعلى ندرتهن فهن موجودات، ويختلف هذا من عرش إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى، اكتسبن الفقه أو العلم عن طريق السماع أو المشافهة أو التعلم من أحد أقاربهن كالزوج إن كان إماما.

وأثناء تنقل التلاميذ فإنهم يقطعون مسافات شاسعة من تراب ولاية الجلفة حتى صحاري حاسي رمل وحاسي مسعود بولاية ورقلة والأغواط وفيافي بلدية أم العظام وشمالا إلى حدود ولاية تيارت، لكن القوافل التي أجعلها عينة البحث لم تنتقل أكثر من مسافة 150 كلم.

والزوايا التي هي عينة البحث زاوية الشيخ سيدي يوسف بدائرة مسعد وزاوية الشيخ سيدي بولرباح بدائرة الإدريسية.

الزاوية الطاهرية: تعرف هذه الزاوية بالطاهرية أو زاوية سيدي يوسف وسميت باسم مؤسسها الشيخ الطاهر بن محمد، و أسست حوالي سنة 1837.

كانت هذه الزاوية راحلة متحركة ينتقل أهلها على الإبل بحثا عن المراعي الخصبة لمواشيهم، لكنها لم تنقطع عن تعليم القرآن فضلت زاوية متنقلة ومؤسسها الأول حفظ القرآن وتعلم الفقه وأصول الدين والحديث في الزاوية العثمانية المعروفة بطولقة، وكذلك بالزاوية المختارية بأولاد جلال وقد أذن له شيوخ الزاويتين بفتح زاوية، والإذن من عند الشيوخ مهم جدا بالنسبة للمريد فإذا الشيوخ ورضاه هو مفتاح العمل وباب السعادة وضمان النجاح، وهذه الزاوية هي الآن قارة لها أبنية ثابتة وتقع في دائرة مسعد ولاية الجلفة ولا تزال تواصل سالتها التعليمية إلى اليوم.

زاوية الشيخ بولرباح: سميت باسم مؤسسها المولود سنة 1790 وتأسست هذه الزاوية سنة 1830، وكانت زاوية

متنقلة ترحل صيفا وشتاء تؤدي رسالة تعليم القرآن وتنير الدروب في تلك البوادي المظلمة، وتونس الموحش في تلك القفار الخالية، فبالرغم من ظروف الحل والترحال واصلت عطائها العلمي ومدها الروحي في عزة وصبر وقناعة وإيمان قوي ورضا بما تقدم من خير، فنالت احترام الجميع وقد تخرج منها العديد من حفظة القرآن بعضهم توظف في وزارة التربية والتعليم، وبعضهم في وزارة الشؤون الدينية، وهي الآن قارة ثابتة وتوجد جغرافيا غرب الولاية تابعة إداريا لدائرة الإدريسية، وتوجد في بلدية عين الشهداء ونشير أن الاستعمار قد تظن منذ دخوله الجزائر إلى خطورة الزوايا على وجوده فحاربها ودس عليها وشوه سمعتها.

خاتمة البحث

إن فكرة إنشاء جائزة الجزائر لحفظ القرآن والتراث الإسلامي مبادرة طيبة جدا تستحق الثناء الحسن والشكر الجزيل والتمنين الغالي الرفيع والدعاء بالخير والدوام والاستمرارية لما لهذه الفكرة الخيرة من فائدة في إحياء التراث والبحث عن

من تراثنا الثقافي والتعليمي على وجه التحديد، وسلطت الضوء على جزئية من مدرسة الإقراء في الجزائر وهي الزوايا المتنقلة هذه الزوايا التي هي حقيقة تاريخية اجتماعية عرفها بعض المواطنين الجزائريين، لكنها غير معروفة لدى البعض الآخر منهم لعدة أسباب، وهي جزء من تاريخ الجزائر الثقافي يضاف إلى رصيد أمتنا الطافح بالأعجاز، وحسي أنني اجتهدت فمن اجتهد وأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد، ويكفي أن الأجر حاصل بإذن الله والله الحمد على التوفيق وهو سبحانه الهادي إلى الصواب والموفق إليه وهو نعم المولى ونعم النصير.

نفائس المخطوطات النائمة في رفوف الخزائن. إننا بحاجة إلى عزم قوي ومصارحة حقيقة مع ذاتنا لدراسة القدم والجديد. منهج علمي متبصر وبفكر نقدي مشبع بروح الأصالة والمعاصرة وبوعي علمي يربط أسباب الماضي بالحاضر بواقعية تكشف ولا تفضح تصل ولا تقطع تعبد ولا تخرج. وقد أجاد وأفاد القائمون على فعاليات هذا الملتقى إذ برمجوا مدرسة الإقراء في الجزائر فهذه المدرسة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء قد أعطت ثمارها طيبة يانعة على مر العصور. أمني أن أكون قد ساهمت بهذا الجهد المتواضع في إحياء جزء

الهوامش

- (1) الرسول والعلم/ د. يوسف القرضاوي ص 40 ط 1997.
- (2) (نفس المرجع بتصرف يسير ص 3).
- (3) إبراهيم التزوي/ تاريخ التربية في تونس.
- (4) نقلا عن كتاب آداب المعلمين لحمد سحنون تحقيق الدكتور محمود عبد المولى (ص 62).
- (5) أحمد توفيق المدني/ كتاب الجزائر.

